المحـــــــــــــــــــــــــاضرة الأولى :محاضرة تمهيدية للمقياس

نشأة الفـــــــــــــــكر الجـــــــــــغرافي و تطوره عبر العصور التاريخية

أولا: الفكر الجغـــــــــــــــــــــــرافي في الحضارات القديمة

نشأ الفكر الجغرافي منذ القدم، مع بداية تفكير الانسان في الاستقرار؛ حيث كان يقوم بكشف مناطق بيئته بحثا عن الامكانات الاقتصادية التي يمكن ان يستفيد منها(الماء والكلأ..)، وهو بذلك كان يحقق غريزته الطبيعية في حب الاستطلاع والمعرفة دون ان يشعر، ولما كانت الظواهر الطبيعية قديما تؤثر في حياته تأثيرا مباشرا وسريعا فقد كان من الطبيعي ان يبدأ هذا الانسان منذ نشأته الاولى في التفكير في هذه الظواهر وخصوصا العنيفة منها التي كانت لا تسبب له متاع وخسائر كبيره مثل: الاعاصير والعواصم الشديدة، وقد أخذ التفكير في هذه الظواهر يتطور مع تطور الانسان، وظهرت في تفسيرها افكار متباينة بين إنسان العالم القديم؛ في مختلف الحضارات القديمة الرومانية والمصرية والإغريقية وغيرهم.

1.الاجتهاد الجغرافي المصري (من الرصد والمعاينة إلى التصور والافتراض):

لقد ارتبط الفكر الجغرافي المصري ارتباطا ووثيقا وعضويا مع الاجتهاد الحضاري، بمعنى أن الجانب الحضاري عند الإنسان الفرعوني أثر بشكل كبير في صياغة فكره الجغرافي الوليد على ضفاف النيل، وذلك من اجل تحديد شخصية مصر الأرض، مصر الناس، مصر الحضارة، مصر الدولة، ويمكن القول ان ضبط النهر ومواجهة غدره، وقد استقر هذا التفكير الجغرافي بالإنسان المصري القديم في تبني منطق التدبر وحس التفكير وإعمال العقل لحساب المعرفة الجغرافية، وركز في ذلك على اتجاهين:

- **الاتجاه الأول**: الذي تطلع فيه الاجتهاد إلى توسيع المعرفة بالكون ومكان الأرض فيها، وإلى تصور شكل الأرض وقياس أبعادها.
- **الاتجاه الثاني:** الذي تطلع فيه الاجتهاد إلى توسيع المعرفة بمساحات الأرض من حول مصر واشباع الناس بمعرفتها.

طبعا لم يكن الفكر الجغرافي المصري مبنيا على أسس علمية متينة وإنما ارتبط بفكرة الأساطير والخيال في مناقشة مسألة الكون وتعاقب اليل والنهار ومختلف الظواهر الطبيعية كالخسوف وفيضان النهر، وفي ما يلي خلاصة التفكير الجغرافي المصري واهم منجزاته:

- مناقشة مسألة شكل الأرض وتفسير حركة الشمس وحدوث الليل والنهار.
- صياغة التقويم الزمني والحساب الفلكي، معتمدا في ذلك على حركة القمر.
- رصد ومتابعة حركة النجوم وتطوير التقويم الزمني من القمري إلى السنة الشمسية.
- الانفتاح على العالم من خلال الوصول على العديد من المساحات الجغرافية على سطح الأرض.
- وضع العلامات على الخرائط (شبه خريطة) لرصد وتتبع حركة العدو وواقعه في عقر داره أو خارجها أو حتى في المجال التجاري وغيرهما.
- الكشف الجغرافي عن طريق الرحلات البحرية والبرية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

2.الجهد الجغرافي العراقي القديم (تحسس لأبعاد الكون وتصور لمكان الأرض فيه)

بني هذا الجهد على استخدام الحس الجغرافي للإنسان العراقي القديم، وكان وليدا لكل العوامل الطبيعية التي عاشت في أحضان نهري دجلة والفرات، والبشرية التي اشتركت في صياغة الشخصية الحضارية لهم، ولقد تطلع الفكر الجغرافي البابلي إلى معرفة خصوصية الكون وموقع الأرض فيه، فنتج عنهما كفكرة أولى التقويم الزمني والحساب الفلكي، وكمرحلة ثانية كشف المجهول على سطح الأرض، فظهرت ما يعرف بالجغرافية الوصفية، مع العلم ان الفكر الجغرافي البابلي لم يخرج عن دائرة الأسطورة، كما تعرف على حركة القمر والشمس، وتحديد عدد أيام الشهر وعدد أشهر السنة قمريا وشمسيا، وقسم الشهر إلى أسابيع والاسابيع على أيام والايام إلى ساعات، كما تمت إضافة فكرة الفصول إلى السنة.

3.الفكر الجغرافي الإغريقي والروماني (الصناعة الأولى لعلم الجغرافيا):

إن التفكير العلمي والعقلاني في مختلف الظواهر الطبيعية والذي مهد بدوره في ظهور الفكر الجغرافي الجاد بدأ في عهد الحضارة اليونانية ثم تطور بشكل كبير عند الرومان إلى غاية ما نراه اليوم، ذلك ان كلمة جغرافيا في مفهومها كلمة اغريقية تتكون من شقين هما:

Ge : وتعني الأرض، Graphein : وتعني الكتابة أو الوصف

أي انها مجتمعة تعني الكتابة عن الارض او وصفها، ولقد تعلق الفكر الجغرافي الإغريقي أساسا بالفلاسفة والكتاب والرحالة، كما أن وصف الأرض ارتبط عندهما على ركائز أربع وهي:

- الكشف الجغرافي الذي أدى إلى جمع كثير من الحقائق عن سطح الأرض.
- التأليف والتنظير لمختلف الظواهر الطبيعية من خلال التحليل المعين والمجرد.
- رسم الخرائط والمصورات الجغرافية للمناطق المعروفة.
- التأمل في المادة والمعلومات التي جمعت.

وفي ما يلي نماذج عن بعض الفلاسفة والرحالة الرومان والإغريق وأهم اكتشافاتهم الجغرافية:

- ✓ **أرسطو:** لقد كان الفيلسوف اليوناني ارسطو من أبرز المفكرين الذين برزوا في مجال الفكر الجغرافي حيث ألف كتابا اسماه الميتيولوجيا ودرس فيه بعض الظواهر الجوية المتعلقة بالمناخ والطقس، لكنها دراسة نظرية غير مبنية على أسس علمية والقياس والواقعية، إضافة إلى ذلك تكلم فيها عن الفصول وترتيبها طوال مدار السنة.
- ✓ **هيرودوت:** في القرن الخامس قبل الميلاد كتب "هيرودوت" وهو كاتب ومؤرخ وعالم إغريقي عن وصف الاماكن والبلدان التي زارها في شرق اوروبا وغرب اسيا وشمال افريقيا لقد اهتم الفكر الجغرافي الاغريقي بدراسة شكل الأرض كنمط من انماط الفلسفة ليعرف الانسان وضعه في هذا الكون، كما عرف الارض على انها قرص مستدير تحيط به المياه من كل الجوانب.

- ✓ **انيكسماندر ومدرسة فيثاغورث:** بعد محاولة "هيرودوت" جاء" Anaxkande" الذي شبه الأرض بأسطوانة كبيرة الحجم تطفو وسط تكوين غازي مستدير، إلا أن فكرة كروية الأرض لم تتطور الا مع مدرسة **"فيثاغورث"**، وقد أدى التوصل الى هذه النظرية الى تقسيم سطح الأرض الى عدد من خطوط العرض أو Klimata
- ✓ **بارامانيدس Pramanides:** لقد قسم بارامانيدس العالم على اساس تلك الخطوط المكتشفة سابقا سطح الأرض الى خمس نطاقات وهي: نطاق حار في الوسط ونطاقان متجمدان في اقصى الشمال والجنوب بينهما نطاقان معتدلان وقد ظل هذا التقسيم هو السائد حتى اواخر القرن 19م.
- ✓ **إيراتوستين:** ان هذا الفيلسوف خطا بالجغرافيا نحو الامام بقياس محيط الارض عن طريق ملاحظته فرق درجه سقوط اشعه الشمس بين بعض المناطق، وقد كان قياسه لم يختلف كثيرا عن القياسات الحديثة لمحيط الأرض، كما عرف المسافة بين اسوان والإسكندرية ليصبح قياسه لمحيط الارض لا يختلف عن القياسات الحديثة.
- ✓ **سترابو:** مكث في روما وكتب موسوعته الجغرافية التي تغطي الفترة الممتدة من 145ق.م إلى غاية استيلاء الرومان على اليونان والتي تتكون من 17 عشر جزء، تناول فيها الحديث عن مختلف الفلاسفة الجغرافيين الإغريق وانجازاتهم، إضافة إلى وصفه مختلف السواحل والمحيطات والأنهار القريبة والمضائق القريبة من جنوب أوروبا وغيرها من المناطق الأخرى كالهند وفلسطين ...إلخ، لكن تبقى معلوماته مستندة على معطيات من سبقوه.
- ✓ **بطليموس:** ألف كتابا اسمه الدليل في الجغرافيا، وقد خطا بالفكر الجغرافي الإغريقي خطوة كبيرة، كونه جمع فيه خلاصة الفكر الجغرافي الإغريقي، كما قام بوصف الأرض وحدد مختلف اماكنها ووضعها على الخريطة بحسب مواقعها من خطوط الطول والعرض واتبعها في النهاية بوصف دقيق عن مختلف هذه الأماكن موظفا المنهجية التالية:

الوصف الكلي للأرض (الجغرافيا).

الوصف الإقليمي المترابط، الوصف التفصيلي المكاني.

ثانيا: الفـــــــــكر الجغرافي الوسيـــــــــط:

تجدر الإشارة الفكر الجغرافي تأثر خلال هذه المرحلة بالعديد من العوامل منها:

- ➢ سيطرة الظلمة أو البربرية على أوروبا وسيطرة المسيحية على ما جمعته من التراث كلاسيكي، أي ان الفكر الجغرافي حكرا على رجال الدين وبرز تأثيهم في ذلك الفكر من خلال رسم الخرائط وشكل الأرض وان أي تصور مخالف لهم يؤدي بالمخالف إلى عقوبات قاسية.
- ➢ في الشرق أي بلاد العرب برز نور الإسلام وقد اتسعت رقعته شرقا وغربا عن طريق الفتوحات، أي ان المعرفة الجغرافية تقلصت في أوروبا وبزغت في بلاد الإسلام، وبالتالي أصبح المفكر الجغرافي الإسلامي هو الممثل الصحيح له عكس الأوروبي المنكمش في

أحضان المسيحية وفي مايلي سنحاول التركيز على الفكر الجغرافي الإسلامي الوسيط البازغ والمبدع عكس نظيره الأوروبي ، هذا البزوغ والتوسع أدي إلى ظهور العديد من الاتجاهات في الفكر الإسلامي الجغرافي أهمها:

- ✓ **الجغرافية الفلكية والرياضية:**

بدأ هذا الاتجاه بترجمة التراث الكلاسيكي، وبرز في هذا المجال الخوارزمي، حيث وضع جداول فلكية صغيرة واسماها (السندهند الصغير) اتبعها بمؤلف تحت عنوان **"رسم الأرض"**، ثم جاء الغزارى الذي تبنى الأسس الهندية في وضع الجداول الفلكية غير أنه استبدل النظام الهندسي في حساب السنين القمرية.

- ✓ **جغرافيا الوصف:**

إن اهتمام العرب بالجغرافية الوصفية جاء نتيجة التوسع بالفتوحات الإسلامية، كما جاء بدافع الرغبة في معرفة أحوال البلدان ووصف سكانها، وأصبحت هذه الدراسات الوصفة تطويرا للدراسات الوصفية، وكانت على مستوين هما: الدراسة الإقليمية العامة والخاصة، ومن أحسن المؤلفات المسالك والمماليك لابن خرداذبة، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي، وكتاب صفة جزيرة العرب للهمذاني، وكذلك مؤلفات الرحلات لابن بطوطة.

- ✓ **التفسير والتعليل الجغرافي:**

لقد اهتم العرب بتفسير مختلف الظواهر الجغرافية سواء تلك التي شاهدوها او سمعوا عنها، ثم قاموا بإيجاد العلاقة بين الإنسان وبيئته في مختلف الأقطار، فظهر كتاب المسعودي مروج الذهب، كما اهتم برسم الخرائط والتعليق عليها.

إن الفكر الجغرافي العربي الذي بزغ طيلة خمسة قرون أخذ يؤول للزوال نتيجة الانحطاط والضعف الذي مس الدولة العباسية، بالمقابل اخذت أوروبا تفيق من سباقها وكبوتها فظهر فيها ما يعرف بعصر النهضة الذي تطور فيه الفكر الجغرافي كثيرا ويكاد شبيها لما نعرفه اليوم.

ثالثا: الفكر الجغرافي في عصر النهضة (احياء للعلوم وظهور حركة الكشف الجغرافي)

أخذت النهضة تدب في أوروبا منذ القرن 14م فعملت على احياء العلوم الكلاسيكية وشجعت قيام المجامع العلمية، وقد شهدت الفترة الأخيرة من ذات القرن حدثين هامين ساهما في بزوغ الفكر الجغرافي وهما:

- ➢ رحلة عبر المحيط الأطلسي واكتشاف العالم الجديد من قبل كولمبس (اسبانيا).
- ➢ اكمال ارتياد المحيط الهندي حول الرجاء الصالح والوصول إلى بواسطة فاسكو دي غاما.

لقد استمرت حركة الكشف الجغرافي لمدة ثلاث قرون، أي عندما قارب القرن 18م، على النهاية، وكان خلال هذه الفترة العالم قد عرف بقاراته وبحاره، وبذلك تم حل لغز الفكر الجغرافي

الكلاسيكي عن ماهية بقية أجزاء المعمورة، وبقي على الجغرافيين التعرف فقط على ما تحتويه هذه القارات فظهر ما يعرف بالاستعمار الاستيطاني، كخطوة أولى بدأوا بإعادة كتابة تاريخ الجغرافيا ورسم خريطة دقيقة لمختلف مناطق العالم، وفي مايلي أهم المحاولات لتطوير الفكر الجغرافي الأوروبي خلال عصر النهضة:

- في ألمانيا ظهرت محاولة كلا من **بيتر ابيان وسيبستيان مونستر** اللذان نشرا مؤلفات جغرافية مهمة وغزيرة من ناحية العدد والصفحات لم يعرفها العالم منذ سترابو وبطليموس.
- ثم ظهر أحد طلاب **ابيان بيتر** واسمه **جيرارد كريمر** وكان مولعا برسم الخرائط وقد عمل على تطوير مسقط الخرائط المعروف باسم " **ميركيتور**".
- واهم تطور جغرافي مؤثر ومهم جاء بعد مائة سنة عندما نشر **بيرنارد فيرانيوس** مؤلفاته، إذ حاول بناء إطار جديد للمفهوم الجغرافي الذي عرضه في كتابته وقد الجغرافيا على أنها ذلك القسم من المعرفة الذي يتكون من مزيج من الرياضيات التي بها أمكن وصف الأرض وتحديد أقسامها ولقد قسم الجغرافيا إلى :
  - ✓ **الجغرافيا العامة General Geog**: دراسة الأجزاء بشكل عام
  - ✓ **الجغرافيا الخاصة :Special Geog** دراسة الأقطار المختلفة.

بهذا يكون **فيرانيوس** قد وضع الأسس الصحيحة ولأول مرة عناصر للدراسة الجغرافية ولمنهج بحثها: المنهج العام والمنهج الاقليمي، ونشر هذا في المجلد الأول من جغرافيته وهو الجغرافية العامة وقد بقي مؤلفه هذا ذو أهمية كبرى في أوروبا لمائة سنة تقريبا دون ان تنافسه مؤلفات جغرافية أخرى.